قضية للحوار

هل نظامنا التعليمي بحاجة إلى تغيير جذري و«انقلاب تربوي»؟

في أحد الأيام الدراسية، جاءني أحد المعلمين بقصاصتين من الورق (ما زلت أحتفظ بهما) قال أنه قد وجدهما مع طالبين من طلاب الصف الرابع الأساسي. كانت القصاصة الأولى:

«اللهم أرسل إلى المدرسين ضربةً قوية

وإلى المدرسات صدمةً قلبية

وإلى المدرسة قنبلةً ذرية

وإلى الطلاب عطلةً صيفيةً أبدية»

أما القصاصة الثانية ـ وهي أكبر حجماً ـ فكانت أبياتاً من الشعر على شكل «دعاء» على المدرسين:

اللهم عذب المدرسين والمدرسات ... الأحياء منهم والأموات

اللهم مزق دفتر العلامات ... وحوّل الأصفار إلى مئات

اللهم عذب مدرس الرياضيات ... وأدخِلْه في غرفة العمليات

اللهم عذب مدرس العلوم ... واحصره بين الفم والبلعوم

اللهم عذب مدرس الأحياء ... وحوّل جسمه إلى أجزاء

اللهم عذب مدرس الدين ... لأنه كان من المشركين

اللهم عذب مدرس المطالعة ... واجعل حياته في مصارعة

اللهم عذب مدرس النصوص ... لأنه كان من اللصوص

اللهم عذب مدرس علم النفس ... واجعله يموت بالرفس

اللهم عذب مدرس التاريخ ... واحذفه إلى المريخ

اللهم عذب مدرس الرياضة ... ولبِّسه مريلة وحفاضة

بعدما قرأت هاتين القصاصتين، دارت في ذهني تساؤلات عديدة: هل السبب في حصول أمر كهذا هو المعلم؟ وهل المعلم عندنا لا يصلح أن يكون معلماً؟

وهل مناهجنا التربوية مناهج للتجهيل أم للتعليم؟ أم لأن أولياء الأمور يعملون ـ بغير قصدٍ طبعاً ـ على غرس النفور من المدرسة والمعلمين والتعليم بصورةٍ عامة لدى أبنائهم؟.

أم هل لأننا ـ نحن المعلمين ـ ورثنا سلوكيات سلبية منذ الصغر من معاملة آبائنا ومعلمينا لنا، فحاولنا دون أن ندري غرسها في طلابنا؟

هل القوانين التي أصبحت مطبقة في نظامنا التعليمي هي السبب، من إلغاءٍ للامتحانات العامة،إلى منع العقاب البدني، مروراً بالترفيع الآلي، وإلغاء الامتحانات في الصفوف الابتدائية الثلاثة الأولى؟

هل سوء الحالة الاقتصادية قد دفع الكثير من أولياء الأمور إلى بغض المعلمين فانعكس ذلك على سلوك أبنائهم؟

كمدير مدرسة، هذه التساؤلات وغيرها تداعت إلى خاطري تباعاً، نتيجة ما وجدته وقرأته؟! ومع أن ما قرأته كتبه طالب واحد أو طالبان، وصحيح أنه قد يكون منقولاً عن أخوة لهم أكبر سنا، ولكن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً؛ لأن هاتين القصاصتين تلاقيان استحساناً من غالبية الطلاب، ثم لأن هذا الأمر يدل على أن أكثر من فئة عمرية من الطلاب تتبنى وجهة النظر هذه.

هل مثل هذه القصاصات والكتابات تدل فعلاً على كره الطلاب للمدرسة والمعلمين والتعليم؟

إذا كانت الإجابة بالإيجاب، فما السبب؟ ومن المسؤول عن ذلك؟ وما الحل؟.

أرى أن مثل هذه الأمور تدل فعلاً على أن المدرسة مكان غير محبب لطلابنا، وأن التعليم ـ في نظرهم ـ عبءٌ ثقيل على كواهلهم، وأن المعلم شخص غير مرغوب فيه. ونستطيع أن نلاحظ هذا الأمر من خلال عدة مظاهر: مثل تمزيق الطلاب لدفاترهم وكتبهم، وقذفها في الشوارع بصورة مزرية في اليوم الأخير من العام الدراسي. وقذف الطلاب للمدرسة بالحجارة في اليوم الأخير من العام الدراسي، أو في الأيام التي تحدث فيها اضطرابات لسبب من الأسباب.

ومظاهر أخرى، مثل فرح الطلاب عندما يعلمون أن هناك يوم عطلة. وقد تساءلتُ: لماذا يحدث هذا في مدارسنا، وقد قرأت مقالة في مجلة «رؤى تربوية ـ العدد السادس» لمعلمة فاضلة عن تجربتها في إحدى دول الخليج، وكيف أن أحد الطلاب قد بكى عندما علم أن اليوم التالي يوم عطلة، ولما سألته معلمته عن سبب بكائه قال: لأني لن أذهب إلى المدرسة غداً.

هل القوانين التي أصبحت مطبقة في نظامنا التعليمي هي السبب، من إلغاءٍ للامتحانات العامة،إلى منع العقاب البدني، مروراً بالترفيع الآلي، وإلغاء الامتحانات في الصفوف الابتدائية الثلاثة الأولى؟

أرى أن الجميع مسؤول عن هذا الخلل، من معلمين ومديري مدارس، وموجهين تربويين، ووزارة التربية والتعليم، وكذلك الأهل وأولياء الأمور إضافة للأسباب المتعلقة بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية الصعبة، ولكني حقيقة أرى أن الذي يتحمل العبء الأكبر هو المعلم.

الذي عليه أن يجعل مهنة التعليم رسالةً له في الحياة وليست فقط مهنة لكسب العيش.

ويسعى دائماً إلى تطوير نفسه أكاديمياً وفنياً، وأن يبادر إلى ذلك بنفسه إن لم يجد المعونة من مدير المدرسة أو الموجه التربوي. وأن يسعى للتقرب من الطلاب، وأن يتعرف إلى نفسياتهم واهتماماتهم، وحل مشكلاتهم بطريقة تجعلهم يشعرون أنه مصدر أمن وحب لهم.

الباحث: عطية العمري

مركز القطان للبحث والتطوير التربوي ـ غزة